ابن خلدون

هو حكيم المؤرخين ، وعلم المحققين ، الفقيه الكاتب الشاعر المصنف القاضي ابوزيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون .

وبين عبدالرحمن وجده الاكبر خلدون آباء يقدرهم ابن خلدون نفسه بطريق الحدس بنحو عشرين أباً وان لم يحفظ من أسمائهم الا عشرة .

وينتهي نسبه الى وائل بن حُجر من أقيال حضرموت ، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فبسط له رداءه ، ودعا له ولولده . ثم كان في شيعة معاوية ، ونزل خلدون من ولده (ويسمي خالد بن عثمان بن الخطاب) بلدة قرمونة من الاندلس في رهط من قومه . ثم انتقلوا الى اشبيلية ، وأسسوا فيها بيتهم الشهير ، وخدموا في الجند وقيادة الجيوش زمن بني أمية ، واستبد بحكمها بعضهم ، وبقوا يتعاورون أعمال الولاية والقيادة وخدمة السلطان زمن ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين ، فلما ضعف شأن الموحدين بالاندلس ونشأت دولتا بني هود وبني الاحمر ولم تستطع هذه الدفاع عن اشبيلية واوشك الاسبان ان يستولوا عليها ، رحل عنها آل خلدون الى سبتة ، ثم انتقلوا الى افريقية في جوار اميرها ابي زكريا الحفصي ، فأسسوا بيتاً جديداً بتونس يعيش بخدمة الدولة الحفصية في الشؤون العسكرية والسياسية ، الى ان انصرف آخرهم محمد ابو المترجم عن وظائف السيف والحكم ، وانقطع الى طلب العلم والادب والرباط للعبادة ، فشب ابنه عبد الرحمن على مذهبه اولاً ، ثم نزع به عرق الوراثة فقضى في الحكم والسياسة اكثر عمره كما سنبينه .

ولد عبد الرحمن بن محمد مترجمنا في غرة رمضان سنة ٧٣٢ بتونس ونشأ بها ، فحفظ القرآن وتلقى على ابيه مبادئ العربية والأدب والفقه ، وحفظ المعلقات والحماسة وكثيراً من شعر القدماء والمحدثين ، ثم اخذ عن كثير من فحول علماء تونس ومن جلا اليها من علماء المغرب الاقصى والاندلس ، وقرأ القرآن بالروايات السبع ، ودرس النحو واصول الفقه وفروعه على مذهب مالك ، وقرأ الموطأ وصحيح مسلم ، واخذ المنطق وتعاليم الفلسفة والحكمة على طريقة ابن رشد وغيره ، والحساب وفن الكلام على مذهب الاشاعرة على العلامة الابلي الاندلسي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واتفق ان دهم افريقية طاعون جارف مات فيه أبواه واكثر ذوي قرابته واشياخه فكسف باله ، ومال الى الاشتغال باعمال الدولة ، فتولى كتابة العلامة عن السلطان ابي اسحق الحفصي وهي (الحمدلله والشكرلله) تكتب بالخط الغليظ بين البسملة وما بعدها من مخاطبة او مرسوم ، وسنه لاتتجاوز العشرين .

وكأنه استصغر هذا العمل فعزم على الخروج الى المغرب الأقصى لعله يجد عملاً أرفع ، فما كاد يخرج مع سلطانه في غزاة انهزم فيها حتى يمم المغرب قاصداً السلطان ابا عنان المريني بفاس فلقيه في طريقه امير بجاية (عنابة) الآن فصرفه عن قصده ، وأخذه معه الى بلده في خدمته ، الا ان شهرته بالفضل كانت قد بلغت ابا عنان ، فطلبه منه ، فأرسله اليه ، فضمه الى مجلسه العلمي الذي كان يعقده للعلماء والادباء يناظرهم فيه ويشاركهم في البحث ، وعهد اليه بمثل عمله في تونس الا ان ابن خلدون انتهز فرصة لقاء هؤلاء الأعلام فأكب على التحصيل والاخذ عنهم واستكمال علمه عليهم ، وازداد حظوة عند السلطان ونفوذ جاه ، فأوغر ذلك صدور المقربين للسلطان ، فاتهموه عنده ان صدقاً وان كذباً بمالأة امير بجاية على الدولة ، فقبض عليه وعلى امير بجاية وأودعهما السجن . ثم أطلق الامير ، ولبث ابن خلدون في السجن نحواً من سنتين مات في نهايتهما السلطان ، فأخرجه الوزير الحسن بن عمر من السجن ، وقلده عمله القديم الا ان ابن خلدون لم يختر العافية وعيشة الهدوء بل سعى في تدبير الامر للامير ابي سالم المريني (وكان منفياً الى الاندلس) حتى سهل له الاستيلاء على ملك المغرب . وعندئذ أغدق عليه الأموال الطائلة وقلده كتابة السر وانشاء الرسائل السلطانية . فعدل عن مألوف كتاب المغرب من الكتابة المسجوعة البديعية ، وآثر المرسل من الكلام البليغ على طريقة القدماء . ثم ولاه خطة المظالم ، وهي وظيفة جليلة في الدولة ، فهاج ذلك حساده ووشوا به الى السلطان ، فتنكر له . وأحس ابن خلدون ذلك منه فتآمر هو والوزير عمر بن عبد الله على خلعه ، فخلع واستبد الوزير بالملك ، وكافأ ابن خلدون بعمل لم يعجبه ، فانقطع عن خدمة الديوان لفرط الدالة ونزق الشباب ، فجفاه الوزير ، فاستأذنه في الخروج ، فأذن له بعد مشقة .

وكان ابن خلدون قد ادى للسلطان محمد بن الاحمر ووزيره لسان الدين بن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخطيب خدمات جليلة ايام نفيهما الى المغرب ، فأراد ان يستغل ما قدمه اليهما فكتب اليهما بالقدوم الى الاندلس ، فلقياه بالحفاوة والكرامة ، واسفره ابن الاحمر الى ملك قشتالة الاسباني باشبيلية في مهمة ، فنجح فيها ، وحظي عند السلطان واختص به في اكثر مجالسه ، فأحفظ ذلك صدر ابن الخطيب ، فشعر ابن خلدون بالامر ، وتخوف العاقبة . فاستأذن السلطان ان يرحل الى بجاية لخدمة اميرها فأذن له على كره ، فولاه امير بجاية اكبر عمل في دولته ، وهو منصب الحجابة ، ولكن سوء حظه حوّل مجرى الامور ، فخرج عليه ابن عمه وقتله ، فلم ير ابن خلدون بأساً في تسليم المدينة له جلباً لمودته ، ولكن مودته لم تدم ، فأوقع الوشاة بينهما .

فخرج من بجاية وعزم على الانقطاع عن السياسة والاشتغال بالعلم والتدريس بمدينة بسكرة ، الا ان ريح السياسة عصفت به ، فخرج الى فاس ، فلم يطب له فيها العيش وتنكر له المستبدون بها ، وظنوا انه يمالئ عليهم اعداءهم بالمغرب ، فاستأذنهم في الخروج الى الاندلس ، فعاد اليها ولاقاه ملكها محمد ، ووزيره ابن زمرك بعد مقتل ابن الخطيب غير ان أعداء ابن خلدون بالمغرب والاندلس أبلغوا ابن الاحمر انه كان يسعى في خلاص ابن الخطيب من نكبته ، ويحطب في حبله ، فطرده ابن الاحمر من بلاده ، فخرج منها بائساً لا يدري اين يذهب ، حتى أذن له ملك تلمسان ابو حمو بدخولها مع انه كان حاقداً عليه لمظاهرته لاعدائه ، وبعد مدة كلفه الخروج الى بعض اهل البدو لاستمالتهم الى طاعته فغير وجهة قصده ، ونزل ضيفاً على أولاد عريف في كنفهم ، وبيت العزم على الانقطاع عن اعمال السياسة والشروع في التأليف ، فمكث بينهم اربع سنوات الف في خلالها معظم تاريخه العظيم ، وسود مسودة مقدمته في خمسة اشهر منها ، ثم احتاج الى مراجعة الكتب الكبيرة فاستأذن سلطان افريقية من الحفصيين بدخول تونس وطنه القديم ، فأذن له فدخلها وألهاه مراجعة الكتب والاشتغال بالتدريس والتأليف عن زيارات السلطان ومدحه في المواسم بالقصائد ، واشتهر امره في تونس واقبل عليه الطلاب والمستفيدون من كل فج ، وانصرفوا عن دروس العلماء بتونس الى درسه فوشوا الى السلطان بانه يتكبر عليه ولا يمدحه ، ومع ان ابن خلدون بعد ذلك مدحه وأهدى اليه ما أتم من تاريخه لم يصف له وجهه . فاستأذنه في الرحلة الى المشرق للحج واستكمال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تاريخه فأذن له ، فخرج الى مصر بطريق البحر فدخلها سنة ٧٨٤ في مبدإ حكم الملك الظاهر برقوق اول ملوك الشراكسة ، فجلس للتدريس بالجامع الازهر ، وتولى قضاء المالكية سنة ٧٨٦ فأظهر العدل والصراحة في أحكامه والضرب على ايدي المزورين والمتقاضين من الاعيان فعزّ ذلك على بعض الرؤساء وحسده العلماء والقضاة وسعوا به لدى السلطان ، وصادف ذلك غرق اهله وأولاده عند قدومهم اليه من المغرب ، فانقبضت نفسه عن الدنيا واستقال من القضاء وخرج الى الحج سنة ٧٩٧ . ثم رجع الى مصر وتولى التدريس حتى خرج مع كثير من علماء مصر في جيش السلطان فرج بن برقوق لمدافعة تيمورلنك عن الشام ولكن برقوق رجع بجيشه الى مصر دون ان يلاقي تيمولنك لفتنة حدثت في مصر وترك تيمور يحاصر دمشق . فخرج ابن خلدون منها في جماعة من العلماء الى مرادق تيمور ، وسأله تيمور عن حاله ، فخلبه بسحر بيانه ودهائه وأطلعه على ما كتبه في تاريخه من أعماله وفتوحه ، واستأذنه في الذهاب الى مصر فأذن له ولم يعد اليه . وبقي مشتغلاً بالتدريس والقضاء حتى مات بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ وهو قاض للمرة السادسة . ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر ، وجهل قبره .

* * *

اخلاقه = يستنبط القارئ لسيرة ابن خلدون وتقلبه في البلاد والمناصب على اختلاف أنواعها أنه اشتمل على أخلاق من شأنها ألاّ تجعل حياة صاحبها هادئة هنيئة ، لا يكدر صفوها كيد الحساد ولا منافسة النظراء .

فأولها : علو الهمة والطموح الى افتراع كبار المناصب في الدول ، ولا جرم أن هذه المناصب في الدول قليلة العدد ، عزيزة المنال تقتضي أن ينفرد متوليها في الدولة بالمجد والجاه ، وهو ما يتطلع اليه كل عظيم النفس ذكي الفؤاد ، ويبذل في سبيل الوصول اليه النفس والنفيس ، ويترخص اليه كل عظيمة من سعاية وغش وخديعة وتزوير لاسقاط متوليها من منصبه وعظيم جاهه ليخلو له الجو او يقارب .

وثانيها : انه كان عظيم الثقة بنفسه الى مدى بعيد أغفله عن مراقبة خصومه ، والتنبه لمكايدهم ليحبط أعمالهم ، ويرد كيدهم عليهم ، فما كان يفطن لكيدهم الا وقد وقع في الشرك الذي نصبوه له ، وقلما نجا منه . وربما حمله ذلك على احتقار من هم دونه وقلة المجاملة لنظرائه والدهان لرؤسائه فيميل مقامه بينهم ، ويتربصون به الدوائر وربما جره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك ايضاً الى الاعجاب بنفسه والدالة على رؤسائه والتحدث عن أعماله وآرائه بما لا يروق المنافسين له .

وثالثها : قلة الوفاء لمن جذبوا بضبعه الى المعالي من الملوك والامراء والوزراء والرؤساء الذين خدمهم في دولتهم ، وسمحت له نفسه بمظاهرة اعدائهم عليهم عند ما يتوقع ركود ريحهم ، وانتقاض ملكهم : ايثاراً للسلامة ، وتوقياً للمكروه الذي قلما سلم منه ، وحرصاً على مرتبة أسمى وجاه أرفع ، وذلك الخلق متولد من التطرف في الخلق الاول وهو علو الهمة .

ورابعها : انه كان كثير الملل والسآمة كثير التبرم بالاكفاء والنظراء وربما كان ذلك ناشئاً عن الخلق الاول ايضاً .

* * *

ذكاؤه ونفوذ خاطره في سنن العمران والاجتماع البشري = كان ابن خلدون احد نوابغ العالم الذين عاشوا افذاذاً في عصور مظلمة لم يعضدهم فيها مشاكل ، او تعرف قدرهم أمتهم ، فكانت حياتهم بين الامة التي عاشوا فيها كلها شقاء ومحنة ، فقد أعد نفوذ خاطره وصدق نظره الى الاهتداء الى كثير من علل الحوادث التي تنتاب الاجتماع البشري وعرف ما بينها من الارتباط والتشابه حتى وقرت في نفسه بصور قوانين عامة وأليسة مطردة سال بها قلمه دون ان يفطن لها كثير من اهل قرنه ، ولم ينكشف سرها ويتضح للباحثين صدق انطباقها على سنن العمران والاجتماع الا بعد انقضاء عدة قرون . وهذا الذكاء الفائق في ابن خلدون مراتب الذكاء المعتاد فيمن نشأ على نظام التربية والتعليم المتبع في عصره هو الذي جعل تفكيره يتسامى الى أفق أعلى من أفق التفكير عند اهل عصره ، فبعدت الشقة بينه وبينهم فزالت المؤالفة والتراضي وحسن الاغتباط بالصحبة ، والى هذا يرجع شقاء كثير من أذكياء العالم على ايدي القرن الذين نشئوا بين ظهرانيهم ، فلم تثمر أعمالهم في عصرهم ، وقد يحفظها التاريخ لمن يفطن لها ممن يأتي بعدهم ، ويقتبسون من نورها في حياتهم وآرائهم ، كما فطن هو بثاقب نظره الى آراء كثير من فحول التفكير الذين سبقوه بقرون وباحوا بما جاشت به نفوسهم من قوانين وحقائق لم يشعر بها اهل زمانهم ، فمخضها واستخرج منها زبدة آراء لم يعرفها العلماء الا بعد تهذيب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العلوم وترقية شؤون التعليم والتثقيف ، فكان وجوده سابقاً بذكائه المتوقد للعصر الذي يلائم تفكيره بنحو اربعة قرون .

وقد يخطر بالبال المجرد من التأمل ان ابن خلدون لو لم ينهمك في أعمال السياسة ويتول الكثير من مناصب الدولة والرياسة وكان قد توفر على التعمق في البحث والتمحيص لكان للناس من ثمرة ذكائه أضعاف ما اثر عنه ، ولكن لا يعزب عن المتأمل ان ما وصل اليه ذهنه من القوانين والآراء التي قررها في مقدمته انما كان اكثرها بسبب احتكاكه بالناس حاكماً ورئيساً ومرؤوساً وطالباً ومطلوباً وملابساً لاحوال الملوك والمستبدين على اختلاف نزعاتهم ونباين أممهم ونحلهم وأنسابهم وبلادهم .

* * *

علمه وتصرفه = قدمنا ان ابن خلدون درس في شبابه من علوم القرآن والفقه واصوله والكلام والعربية والآداب وتعاليم الفلسفة والتصوف ما اعتاد كثير من المحصلين من اهل زمانه ان يجودوه ، بل ربما قل عنهم فيه ، لانتظامه في سلك الاعمال السلطانية قبل ان يطر شاربه ، وانما العبرة في ابن خلدون وأضرابه من أذكياء العالم في امرين : الاول الانتفاع بالقليل من المعرفة بحسن تصريفه في كثير من وجوه العلم ، والثاني دوام الاستزادة من المعرفة كلما سنحت الفرصة وتهيأ لهم الفراغ ، فيكونون على اتصال دائم بالعلم فلا تخمد جذوة ملكتهم فيه ، ويغزر علمهم ، ويتسع اطلاعهم اذا بارك الله في عمرهم وافسح اجلهم ، فقد وجدناه يقوم بوظيفة خطية هي كتابة العلامة فيجودها ، ويشتغل بصناعة كتابية من كتابة السر وانشاء الرسائل فيجدد من محاسنها ، ويندب للسنارات وتأديب البغاة واستمالة العصاة فينجح فيها ، ويتولى الحجابة فيرفه من شأنها ، وتسند اليه خطة المظالم والقضاء (وهما ثمرة الفقه والاضطلاع بالعرف) فلا يتحرف عن جادتها ، ويصنف في التاريخ والأدب والفلسفة فيعد من المبتكرين والأئمة الواضعين فيها والرافعين من قواعد هيكلها ، ويجلس لتدريس الفقه والاصول والكلام فتنثال عليه الطلاب من كل حدب ، وينحل له ما تعقد من صناعة التربية والتعليم ، ويصبح قدوة فيهما . وبذلك يسقط قول الامام الجليل ابن عرفة المالكي في ابن خلدون عندما قدم مصر الى الحج

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب ، فلما بلغنا ان ابن خلدون ولي القضاء عدنا بالضد من ذلك » على انه كان من المنافسين له في المغرب .

* * *

ابن خلدون باعتباره كاتباً مترسلاً = نشأ ابن خلدون في زمان يسلك كتاب الرسائل السلطانية فيه طريق الكتابة المسجوعة المحلاة بانواع البديع على طريقة ابن العميد وكانت طريقة القاضي الفاضل التي أساسها التورية والتوجيه والجناس قد دب دبيبها الى المغرب منذ حين حتى لابست اقلام كثير من بلغائه كابن الخطيب ، وهي الطريقة التي سماها ابن خلدون بالشعر المنثور ، فشب ابن خلدون في كتابته على هذه الطريقة وكتب بها ردحاً من الزمن حتى ظهر له فسادها في الرسائل السلطانية ، وعدل عنها الى طريقة بلغاء الاوائل كابن المقفع واحمد بن يوسف والجاحظ ، فأحيا بذلك في عصره الكتابة المرسلة الفطرية الخالية من السجع وتكلف البديع في عصر بلغ فيه ذلك غايته ، قال عن نفسه عندما كتب للسلطان ابي سالم المريني :

« واستعملني في كتابة سره والترسل عنه والانشاء لمخاطباته ، وكان اكثرها يصدر عني بالكلام المرسل بدون ان يشاركني احد ممن ينتحل الكتابة في الاسجاع لضعف انتحالها وخفاء المعاني فيها على اكثر الناس بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ وكان مستغرباً عند من هم من اهل هذه الصناعة » .

وقد عرفت رأيه مفصلاً في استهجان هذا الشعر المنثور والنثر المسجوع والنعي على مستعمليه في كتابة الرسائل مما قدمناه لك عند الكلام في كتابة الرسائل زمن المماليك منقولاً من مقدمته فراجعه ثمة وتأمل تعليله لذلك تعرف وجه انصرافه عن هذا النوع من الكتابة في الرسائل السلطانية والرجوع الى طريقة القدماء من البلغاء نعم ان ابن خلدون بقي الى آخر حياته تصدر عنه بعض المكاتبات لاخوانه المؤثرين طريقة البديع كابن الخطيب مجاملة لهم وجرياً معهم في ميدانهم الا انه راعى فيها القصد ، ولم يتكلف البديع ، وخاصة التورية والتوجيه كما تكلفها ابن الخطيب وغيره ممن فتنوا بطريقة المشارقة حتى حاكوهم فيها بتأليف كتب العلم والتاريخ مسجوعة ، كالفتح ابن خاقان في قلائد العقيان والمطمحين وكابن بسام في الذخيرة وكابن الخطيب في الاحاطة وكتاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحب الشريف وغيرهما ، فرأى ابن خلدون بنفسه ونزع نير التقليد من كتابة الرسائل ومع الملم ابن خلدون بكثير من العلوم ذات القواعد والاصطلاحات من نقلية وعقلية لم تظهر على رسائله السلطانية والاخوانية مسحة الكتابة العلمية وأساليب العلماء كما ظهرت في ابن الخطيب .

* * *

مؤلفات ابن خلدون وكتابته فيها = ذكر لسان الدين ابن الخطيب بعض مؤلفات ابن خلدون قبل ان يؤلف تاريخه العظيم ومقدمته النفيسة فقال (شرح البردة شرحاً بديعاً دل به على انفساح ذرعه وتفنن ادراكه وغزارة حفظه ولخص كثيراً من كتب ابن رشد وعلق للسلطان « محمد بن الاحمر » أيام نظره في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ولخص محصل الامام الفخر الرازي[1] والف كتاباً في الحساب وشرع في هذه الايام في شرح الرجز الصادر عني في اصول الفقه بشيء لاغاية بعده في الكمال) وقال صاحب نفح الطيب بعد نقل هذا الكلام من الاحاطة هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادئ امره واوسطه فكيف لو رأى تاريخه الكبير .

ونحن وان لم يعثرنا الزمان على جميع مؤلفاته لنتعرف معالم كتابته في مختلف العلوم نستطيع قياس الغائب على المشاهد من كتابة مقدمته وتاريخه نرجح ان كتابته في الاصول والكلام والفلسفة لا تبعد كثيراً عن الفصول التي كتبها في المباحث الكلامية والفقهية والفلسفية من مقدمته الجليلة وفي بعض مواضيع من تاريخه . وعلى ذلك نبدأ بالكلام على المقدمة والتاريخ فنقول :

* * *

مقدمة ابن خلدون = نتكلم على المقدمة من حيث عبارتها واثرها في اقلام المنشئين ومصادرها والآراء التي انفرد بها مؤلفها فيها واثرها في ايجاد مؤلفات من نظائرها .

(عبارتها) : أما كتابتها فيمكننا وصفها بما يأتي :

---

(١) هو محصل افكار المتقدمين والمتأخرين في علم الكلام على طريقة الاشاعرة وهو كتاب عظيم القدر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أولا — خلوها من السجع الا في النادر كخطبة الكتاب .

ثانيا — جزالتها في الفاظها و بلاغتها في أكثر أساليبها ، و يظهر ذلك في كثير من فصول مقدمته لا في جميعها فجاءت كتابته في هذه الفصول بمنزلة من البلاغة لا تقل عن كتابة فحول القرن الثالث . وقد يسف في كتابته في بعض الفصول ، فيغلب عليها التعقيد وأساليب المناطقة ، فيعتاص فهمها على من لم يرتض ذهنه على فهم عبارات المتكلمين والمتفلسفة .

ثالثا — الاسهاب البالغ حد التكرار الممل في بعض المواضع والايجاز المخل المفضي الى الاستغلاق والغموض في آخر و ينشأ كلاهما في احدى خصلتين : اما من اضطراب أحوال النفس في انبساط وانقباض ، واما من اضطلاع وملاءة ببعض المسائل والدعاوي دون بعض . ولا يبرأ التأليف من معرة هاتين الخصلتين الا بمعاودة المؤلف النظر اليه في أوقات صفائه واستجمام خاطره والانحاء عليه بالتثقيف والتهذيب ومراجعة الاشباه والنظائر من الكتب الباحثة في مثل موضوعه ، وكل ذلك لم يكن بمتيسر الوقوع لابن خلدون فيما لدينا من كتبه ، اذ من المعلوم ان المقدمة التي هي وليدة كد خاطر وقدح ذهن واستقصاء في بحث كتبت في نحو خمسة أشهر ، وهذا التاريخ كتب في أقل من اربع سنين ، و كأن المؤلف لم تهيء له نكبات الايام ولامكايد الخصوم عيشا رغداً ولا بالا صالحاً لمعاودة كل ما كتب منها للتمحيص والتهذيب . وغاية ماعلمناه من ذلك انه راجع المقدمة فقرأ نسخة كتبت في مصر فنقح من بعض عبارتها ، وأعاد كتابة بعض فصولها من جديد ، ولكن ذلك قد كان بعد ان سارت بها الركبان وحملت الى اقاصي البلدان . وقد اطلعت على صورة شمسية نقلها العلامة المفضال احمد زكي باشا عن النسخة الخطية التي نقحها المؤلف بخطه والمودعة احدى دور كتب القسطنطينية ، فوجدت ان هذا التنقيح لم يعدها ، و بقي مدفوناً معها في هذه القبور قبور الكتب اكثر من خمسة قرون ، و يظهر ان المؤلف نقحها في آخر حياته ، وأغفل امرها الى ان حملها السلطان سليم مع ما حمل من الكتب والذخائر والعتاد الى حاضرة ملكه ، فاحتجبت عن قراء العربية دهراً طويلاً ، وطبعت مراراً في كثير من الممالك عن الاصل الذي لم ينقح .

اما التاريخ فيظهر ان المؤلف لم ينقحه بل يظهر ان ماطبع منه في مصر نسخة منقولة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن مسودة لا عن مبيضة لكثرة السقط والبياض فيه .

رابعاً — استعمال المؤلف فيها بعض كلمات لم ترد في معجمات اللغة او صرفت على غير مجاز عن معناها ، واستعماله أساليب تأباها قواعد العربية في نثر الكلام ، او لا يمكن تصحيحها الا بتأول لا داعي اليه ، فيستعمل المنحال اسم آلة لرفع الأجسام ، ولا اصل لاشتقاقها في اللغة ، وكذلك الهندام وهو معرب ومعناه غير ذلك ، ويستعمل الجيل بمعنى القرن واللدات ، والهرج بمعنى الاضطراب ، ويستعمل انتشوا بمعنى نشطوا في الامر ولا أصل له في اللغة ، و يدخل الواو في خبر لا بدّ فيقول (لا بدّ وان) ، و يدخل باء التعدية في فعل استبدل على غير المتروك ، و يعدى نعود بعلى ، و يجعل الخبر او جواب الشرط استثناء او استدراكاً فيقول (فانه وان كان كذا الا انه او لكنه) ، و يؤنث الخلق ، ويستعمل التلميذ اسم جمع ، و يجمع العصبية على عصائب وغير ذلك كثير في كلامه . وقد تعدته هذه الاغلاط الى قراء مقدمته المحاكين لانشائه في اول عصرنا الحاضر ، ومنهم انتقلت الى كتاب الجرائد وقرائها . و بالرغم من هذه الاغلاط لم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته فيها في وقت أظهر منه في اول العصر الحاضر فقد كان أسلوب ابن خلدون المرسل المجرد عن تكلف البديع والمحسنات اللفظية في تعبيره عن المباحث السياسية والعمرانية والاجتماعية والجغرافية والصناعية هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين للنهضة الادبية العربية والسياسية من كتاب العربية في مصر والشام وتونس وخاصة من الف منهم في مثل موضوعاته او كتب في الجرائد والمجلات لقلة المطبوع من الكتب ، ولانه أرحب أسلوب علمي أدبي للنقلة والمترجمين عن اللغات الاجنبية المحافظين على اصل المعنى ، فهي الاستاذ الاكبر لكتاب الصحف والمجلات في نهضتنا الاخيرة ، وربما انضم اليها في ذلك كتاب كليلة ودمنة .

ولم يعد للمقدمة في الثلاثين سنة الأخيرة من هذا العصر ما كان لها من عظم الشأن والقدوة الحسنة في اوائله لكثرة ما طبع من الكتب العظيمة وسهولة اقتنائها على الغني والفقير من اهل الادب لرخص ثمنها ، فشارك المقدمة في تثقيف الكتابة الادبية والتأليفية كتاب الاغاني و كتب الجاحظ وتاريخ الطبري وغيرها من الكتب البليغة الممتعة . على ان كثيراً ممن يعيشون في عصرنا يكتبون في مؤلفاتهم وجرائدهم وقد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

استخلصوا زبدة هذه الأساليب ما لا يقل فصاحة و بلاغة عن ابن خلدون او يزيد مع صحة عبارة وانتقاء لفظ ٠

* * *

(مصادرها) : واما مصادرها فمن الغمط لفضل ابن خلدون والجحود لمواهبه وعبقريته ان نقول بان اكثر مباحثه فيها منقول من كتب المتقدمين فللرجل فيها فصول ونظريات هو ابو عذرتها ومبتكرها وخاصة ما كان متعلقاً بالسياسة والاجتماع والعمران والاقتصاد حتى لا يعدّ مبالغاً من يقول انه واضع علمي العمران والاجتماع ، وانه من اسبق من تكلم في الاقتصاد السياسي ، وان ما كتبه في مسائل هذه العلوم يربو على نصف المقدمة ٠ ولكن من المسلم ان الفصل الاول من العمران البشري اخذه من أمثال رسائل اخوان الصفا وكتب الجغرافيين من العرب الناقلين لجغرافية بطليموس ، واخذ مباحث ادراك البشر للغيب بالفطرة او الرياضة من كتب التصوف والكلام والفلسفة دون ان يكون له كبير رأي فيها ، واخذ مباحث الخلافة والامامة ومذاهب الشيعة والخوارج فيها من كتب الكلام وكتب الملل والنحل للشهرستاني وابن حزم ، وكتاب الفرق بين الفرق والكامل للمبرد والعقد الفريد وغيرها ٠ واخذ مباحث تاريخ العلوم والصناعات من مثل كتاب الفهرست لابن النديم ، وكتاب طبقات الامم لصاعد الاندلسي ، ومن مقدمات الكتب المطولة في التفسير والحديث ، ومن كتب التاريخ لطبقات الرجال في كل فن ، واخذ مباحث السحر والطلسمات والسيمياء والكيمياء من كتب مسلمة المجريطي والكتب المنسوبة لجابر بن حيان ورسالة ابن بشرون ٠ واخذ التنجيم وأسرار الحروف والزايرجة من كتب البوني وابن عربي والسبتي صاحب اللامية وكلهم مغاربة ٠

واخذ الكلام في مقامات الصوفية من مثل مقامات المحبة والمجاهدة والتوجه والفناء وفناء الفناء من كتب الصوفية من أمثال ابن عربي الاندلسي وغيره ٠ واخذ الكلام في خطط سياسة الدولة والاحكام السلطانية والجباية من أمثال كتاب الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي وكتاب الاحكام السلطانية للماوردي وسراج الملوك للطرطوشي وكتابي مروج الذهب والتنبيه والإشراف للمسعودي وكتاب الخراج لابي يوسف ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واخذ كثيراً من مباحث إبطال الفلسفة والتنجيم والكيمياء من كتاب الغزالي وغيرها .

وما بقي من مباحث المقدمة وهو كثير خطير فهو من أبكار أفكاره أوصله اليه كد خاطره وتعمقه في فهم العلوم والتنبه لأسرار الكون والخليقة وطبائع البشر في بداوتهم وحضارتهم ونشاطهم وخمولهم هذا الى كثرة تجاربه ومزاولته العمل في ممالك شتى مما أوضح له ارتباط اسباب نشوء الدول وسقوطها بمسبباتها علاوة على حسن الترتيب والتقسيم والنقد والتعليل لما ليس من مبتكراته وما كل ذكي الفؤاد بقادر على النقد والاستفادة مما يشاهد ويحس في البيئة التي يحلها ولكن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

« للبحث صلة »

عضو المجمع العلمي
احمد الاسكندري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net